www.dorat-ghawas.com

١١٦

المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

www.dorat-ghawas.com

محتويات العدد

المورد . العدد الرابع . المجلد التاسع والعشرون . ٢٠٠١

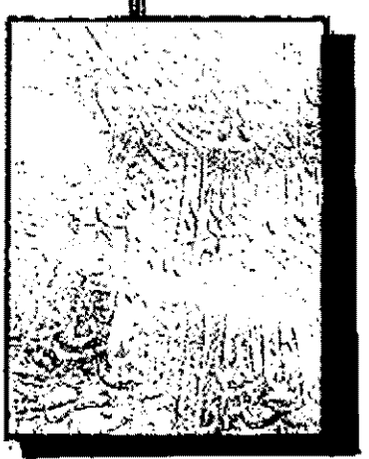

■ الموردة

• فرض الحصار واستمراره
مصلحة اميركية ـ صهيونية ..... د . محمد البكاء ٣ – ٤

■ بحوث ودراسات

• الجهاد في القرآن الكريم ..... د . محمد البكاء ٥ – ١٤
• الصف القتالي عبر الايام والليالي / عرض وتحليل ..... عبد القادر التحافي ١٥ – ٣٤
• المبرد والقراءات القرآنية ..... د . علي ناصر غالب ٣٥ – ٤١
• القراءات القرآنية الشاذة في
غريب القرآن للسجستاني ..... د . صالح مهدي عباس ٤٢ – ٥٢
• كعب بن زهير بين الغربة
والانتماء في نصه الشعري ..... د . عبد الرزاق خليفة الدليمي ٥٣ – ٦٢
• مجالس ابن الجوزي في بغداد وآثارها الاجتماعية ..... أ . د . حسن عيسى الحكيم ٦٣ – ٦٦
• مشيخة الغزاة ودورها في بلاد الاندلس ..... د . مزاحم علاوي الشاهري ٦٧ – ٧٤
• مقام الاطباء عند الخليفة المتوكل على الله ..... أ . د . بهجت كامل عبد اللطيف ٧٥ – ٨٠
• الطب العراقي واثره في الطب اللاتيني ..... د . محمود الحاج قاسم محمد ٨١ – ٨٦

■ النصوص المحققة والفهارس

• زيد بن عمرو بن نفيل حياته وما تبقى من شعره ..... أ . د . ايهم عباس القيسي ٨٧ – ٩٤
• مخطوطات خزانة احمد سالم الكيلاني ..... اسامة ناصر النقشبندي ٩٥ – ١١٢

■ نقد وتعقيب

• نظرات نقدية في كتاب غرر البلاغة
في النظم والنثر للثعالبي ..... عباس هاني الچراخ ١١٣ – ١٢٢

الجديد في المكتبة

• كتاب الانبياء في العراق د . رعد شمس الدين الكيلاني
عرض : نجلة محمد ..... ١٢٣ – ١٢٥

اخبار التراث العربي ..... اعداد : حسن عربيي ١٢٦ – ١٢٨

www.dorat-ghawas.com

كعب بن زهير
بين الغربة والانتماء في نصه الشعري

د. عبد الرزاق خليفة محمود الدليمي

جامعة بغداد – كلية الآداب

في عملية الابداع تتداعى مفردات العمل الفني من منافذ متشعبة قد لا يكون قسط الوعي فيها اوضح من قسط اللاوعي ، ولعل الابداع الشعري بشكل خاص اوضح ميادين نشاط اللاوعي في عملية تشكيل التفاصيل الدقيقة والرئيسة للعمل الفني .

وحين يعاني الشاعر من معضلات شخصية اواجتماعية حادة ، وتغدو اثار تلك المعضلات جزءاً من تكوينه النفسي ، يكون على القراءة النقدية ان تتجه الى استكشاف بصمات اللاوعي في شعره اكثر من اتجاهها الى محاولة استكشاف اثار الوعي في بلورة الباعث الادبي على انتاج النص ، على ان تلك القراءة مسؤولة عن ان تتجه الى تامل اثر تكوين لاوعي الشاعر في عملية اختيار تجاربه الشعرية دون سواها من مجمل تجاربه الانسانية المتاحة .

ويدرك ان يخلو التكوين النفسي لاي شاعر من اثار منعطفات حادة في حياته ، بيد ان الامر خاضع لتباين نسبي ، شانه شان اية ظاهرة انسانية اخرى ، ولسنا نريد ان نغلو فنزعم ان كمية تلك المنعطفات او حدتها هما المسؤولان عن انبثاق العبقريات الشعرية وتميزها ولكننا قد نلمح ان كبرى العبقريات الشعرية في عصور الشعر العربي تنتمي الى مجاري حياة شخصية لا تخلو من منعطفات نفسية يكون لها اثرها الواضح في نتاج كل منها .

وكعب بن زهير ـ الشاعر الجاهلي المخضرم ـ صورة متميزة من صور هذه العبقريات الشعرية التي تشكل معظم نتاجها الشعري في اطار المعاناة النفسية الحادة التي بلورتها تجارب حياته العنيفة ، فقد كان لطبيعة ولادته ومجرى سيرته الشخصية والقبلية وما رافقها من تغيرات حادة ان تحفر اثارها الحادة والعميقة في نتاجه الشعري وتشكل الطبيعة المتميزة لمجاريه الفكرية والفنية على السواء .

ولد كعب بن زهير في مضارب بني مرة الغطفانيين بالحاجر من نجد ، ونشأ في كنف ابيه الشاعر زهير بن ابي سلمى ، وكان زهير ينحدر من اصل مزني ولكنه ولد في بني مرة الغطفانيين ، فقد روى الاصفهاني ان ابا سلمى (ربيعة بن رياح) والد زهير كان يعيش في اخواله من بني مرة فاغار مع اخواله على طيء فاصابوا نعماً كثيرة فلما عادوا اقتسموا فلم يفردوا له شيئاً فارتحل عنهم الى قوم ابيه مزينة واقام فيهم حيناً ثم اغار برهط منهم على ذبيان ، فلما نظروا ارض ذبيان تطايروا عنه راجعين ، فاقبل حتى دخل في اخواله بني مرة فلم يزل وولده فيهم [1]

وقد تزوج ابو سلمى امراة مرية هي اخت الشاعر بشامة

www.dorat-ghawas.com

ابن الدبير الذي ذكر الرواد ان زهيراً اخذ الشعر عنه [٢]

وولد لابي سلمى منها ابناه زهير واوس وابنتاه سلمى والخنساء ...

وتزوج زهير نفسه من امراة مرية ايضاً هي كبشة بنت عمار بن سحيم [٣] فولدت له ابناءه كعباً وبجيراً وسالماً وابنته وبرة ويبدو ان اقامة ابي سلمى وأبنائه واحفاده في بني مرة كانت السبب في ترجح العلماء بين اعادة نسبته الى قومه مزينة مرة والى اخواله المريين مرة اخرى ، فقد قرر ابن سلام في ترجمة زهير بن ابي سلمى انه مزني [٤] ولكنه ذكر في ترجمة كعب ابنه ان ابا سلمى واهل بيته كانوا في بني عبد الله بن غطفان فيهم يعرفون واليهم ينسبون وان اهل العلم من غطفان يؤكدون هذا النسب ولكن العامة ينسبونهم الى مزينة [٥] .

وعلى هذا الترجح ابن قتيبة الذي ترجم زهيراً مرتين فيقول في اول ترجمتيه ان (الناس ينسبونه الى مزينة وانما نسبه في غطفان) ويقول في الاخرى انه (من مزينة مضر) [٦] وتابع ابن قتيبة على ترجحه ابن هشام [٧] والسجستاني [٨] بيد ان الشواهد القاطعة تقوم على صحة انتماء ابي سلمى وعقبه الى مزينة فكعب بن زهير نفسه يصرح بهذا النسب في شعره فهو يقول في مهاجاة له مع مزرد بن ضرار ...

أعــيرتني عِــزّاً عــزيــزاً ومَفْشَــراً
كِــراماً بَنَــوا لي المجــدَ في بــاذخٍ أشَمْ
هُمُ الاصــــلُ مني حيثُ كنتُ وإنّني
من المُــزنيــيْنَ المُصَفّــيْنَ بــالكَــرَمْ [٩]

ويكرر هذا التصريح في موضعين اخرين من ديوانه [١٠] فضلاً عن ان ابن مهادة الشاعر هاجى احد احفاد كعب فصرح بنسبه المزني [١١] .

والذي يعنينا من مسالة النسب هذه ان كعباً ولد في مضارب اخواله بني مرة الغطفانيين وهو يعلم ان انتماءه ليس اليهم وانما الى قومه مزينة ، وولادة المرء ونشاته في قوم لا تربطه بهم إلا اواصر الخؤولة والمصاهرة امر له شانه في المجتمع القبلي الذي يشكل الانتماء الدموي فيه اللبنة الاساسية لوجود الفرد الانساني وكرامته الاجتماعية .

ولقد واجه زهير والد كعب الامر نفسه حين ولد في بني الغطفانيين وهو يعلم ان انتماءه الى مزينة وان اقامته في اخواله المريين امر حتمه عليه استقرار ابيه فيهم فما كان منه الا ان وطن نفسه على الاقامة الدائمة فتزوج فيهم وانجب ، وكان ان تجنب اي موقف يستثير الحاجة الانية الى الانتماء الدموي ، ولعل ذلك احد اسرار ما اتفق عليه العلماء من روايات تؤكد تنزيه خلقه وبعده عن الدنايا ومواقف العنف ، فقد ذكروا انه كان (يتعفف في شعره) [١٢] وانه ممن (حرم على نفسه الخمر في الجاهلية) [١٣] وانه كان (من مترهبة العرب) [١٤] .

ولعل العودة الى ديوان زهير كفيلة بان تقرر ان الرجل كاد يقصر شعره على مديح رجال بني مرة وفزارة فاذا تجاوز المديح مارس رثاء من يموت منهم ، ويكاد ديوانه بعد ذلك يخلو من الفخر القبلي ، اما الهجاء فانه لم يمارسه الا في ثلاثة مواقف[١٥] وعلى الرغم من انه لم يهج الا مضطراً فانه بادر الى القول « ما خرجت في ليلة ظلماء الا خشيت الله ان يصيبني بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتهم » [١٦] .

وهكذا واجه زهير عقدة الانتزاع من الانتماء بالتسامي الإنساني ، اما كعب ابنه فقد واجه العقدة من موقع اخر تماماً ، فهو متمرد على الواقع الذي فرض عليه بالولادة ، فشخصيته العنيفة ومزاجه الحاد كانا يحركانه دائماً الى محاولة خوض مواقف الصراع والمواجهة ، وذلك امر يحتاج في المجتمع البدوي الى اتكاء على وشيجة دم لم تكن مهياة له وهو يقيم في قوم لا تربطه بهم الا رابطة الخؤولة فضلًا عن رغبة هؤلاء القوم عن خوض أي صراع واعراضهم حتى عن المشاركة في حرب داحس والغبراء التي خاضها ابناء عمهم من عبس وذبيان بل سعيهم في اطفاء نار تلك الحرب وتمكنهم من ذلك بما بذلوه من جهد ومال .

ولعل كعباً كان حرياً بان يغادر مضارب أخواله المريين المسالمين الى مضارب قومه المزنيين الذين كانوا يخوضون صراعاً عنيفاً مع الخزرج وغيرهم لولا انه كان مفتقراً الى اعالة ابيه له ولاسرته فقد ذكر الرواة انه كان فقيراً وان اباه (كان موسعاً عليه في بره) [١٧] على ان اضطراره الى الاستقرار في بني مرة لم يكن ليمحو من اعماقه هذا الاحساس بالغربة والضياع وعدم القدرة على التعبير عن هذا الاندفاع في الشخصية والحدة في المزاج .

ولنا الا نستبعد ان يكون مبعث ما تداوله الرواة من ان اباه منعه من قول الشعر اول شبابه (مخافة ان يروى عنه مالا خير فيه) [١٨] لم يكن لهذا السبب فحسب وانما لخوف الاب ان يستعمل ابنه سلاح الشعر الفتاك في امور قد تجلب عليه مالا تحمد عقباه ، والذي يؤكد ما نذهب اليه انه حين سمح له ابوه بقول الشعر بعد ان اختبر شاعريته عاد وهو يقول :

أبيتُ فــلا أهْجُــو الصَّــديقَ ومن يَبِــعْ
بِعِــرْضِ أبيــه في المَعــاشِرِ يُنْفِقِ [١٩]

فالبيت اشارة حاسمة الى ان اباه لم يكن معنياً بقوله الشعر اوامتناعه عن قوله قدر عنايته بان يكون شعره بعيداً عن اثارة ما قد يثلب من المكانة الاجتماعية السامية التي تحققت له ولال ابي سلمى في بني مرة وبين احياء العرب ، وتلك حقيقة اكدها كعب نفسه في موضع اخر من شعره حين قال :

وبــالعَفْــوِ وَصّــاني أبي وَعشــيرتي
وبــالــدَّفــعِ عَنْهــا في أمُــورٍ تَــريبُهــا

www.dorat-ghawas.com

قَـــؤمَـــكَ فَـــاستُبقِ المَـــودَّةَ فيهمُ
ونَفْسَـــكَ جَنِّبْهـا الَّـــذي قـــد يَعيبُهـــا [٢٠]

ولكن ذلك كله لم يكن كفيلاً بكبح جماح شخصية كعب التي ظلت تجد في غربتها وافتقادها الانتماء الدموي باعث تمرد ومواجهة لا باعث مهادنة وتكيف للظروف .

لقد اثار كعب من الخصومات التي ادرك ولده زهير ان ابنه سيثيرها عندما حاول أن يمنعه من قول الشعر ، فقد ذكر الرواة ان زيد الخيل الطائي اغار على غطفان ـ وكان بين غطفان وطيء غزو واغارة ـ فاسر فيمن اسر بجير بن زهير ، فلما سأله عن اسمه ونسبه وعرفه اطلقه اكراماً لابيه فاتى بجير اباه واخبره بما فعل زيد فارسل زهير بفرس كميت كان لكعب هبة الى زيد ، وكان كعب غائباً ، فلما حضر اخبر بخبر الفرس وبذل له ابوه ثمنه فابى ، وقال ابياتاً يدعو بني ملقط الطائيين فيها الى انتزاع فرسه من زيد واعادته اليه ويعرض بزيد فقالت له زوجه : (اما استحيت من ابيك في سنه وشرفه ان ترد هبته ؟) فما كان منه الا ان اصدر ابياته هجاء لها فقال :

الا بَكَـــرت عِـــرسيَ تَـــوائَم مَنْ لَحَى
وأَقـــرِبْ بـــاخـــلامِ النِّســـاء من الـــرَّدَى

وفيها يقول :

يـــا راكِبـــاً إمـــا عَـــرَضتَ فبلِّغَنْ
بَني ملْقَطٍ عنِّي اذا قيـــــل من عَنَى

× × × × × × × × ×

اقـــد نـــال زَيْـــدُ الخَيْـــلِ مـــالَ أخيكمُ
وأصبـــح زيـــدٌ بعـــد فقـــرٍ قـــد اقْتَنَى

فلما سمع زهير الهجاء قال لابنه : « لقد هجوت من ابي مكنف ـ وابو مكنف كنية زيد الخيل ـ ، رجلاً غير مفحم ، وانه لخليق ان يظهر عليك » وقد رد زيد الخيل على كعب بقصيدة توخى الا يفحش فيها وصرح بسبب ذلك في قوله :

فلـــولا زُهـــيرٌ أن أكـــدِّر نِعمـــةً
لقـــاذَعْتُ كَعْبـــاً مـــا بَقِيتُ ومـــا بَقَى [٢١]

ان احساس كعب بالغربة القاتلة عن انتمائه زرع في نفسه بذرة الشك في كل انتماء سواه ، ومن هنا نستطيع ان نفسر سر تنافره مع والده في هذه الحادثة وفي سواها ، فقد ذكر الرواة ان زهيراً حين هدد بني الصيداء بالهجاء لما انتهبوا إبلاً وعبداً له وقف كعب ليقول له ساخراً : « أوسعتهم سباً واودوا بالابل » [٢٢] فذهب قوله مثلاً .

وان كان كعب يلتزم بحد ما في علاقته بابيه فانه لم يلتزم باي حدود في علاقته الاسرية الخاصة مع زوجته ، فبدا انتماؤه الى هذه الاسرة واهياً معرضاً للانهيار في كل لحظة :

إنّ عِـــرسي قـــدْ آذنتْني أخيـــراً
لم تُعـــرِّجْ ولم تُـــؤامـــرْ أميـــراً
أجهـــاراً جـــاهـــرت لا عَتْبَ فيـــه
أمْ أرانَت خِيـــانـــةً وفجُـــوراً

× × × × × × × × ×

مـــا أرانـــا نَقُـــول إلّا رَجيعـــاً
ومُعـــاداً من قَـــوْلِنـــا مَكـــرُورا [٢٣]

لقد كانت تفاصيل الحياة اليومية تستثير كعباً فيصب جام غضبه على زوجته فهو حين ينزل به اضياف فينحر لهم بكراً كان لزوجته ثم يسمع منها عتاباً على نحره بكرها يبادر الى القسم بانه لولا ما يتوقعه من لوم الناس لطلقها وفصلت بينهما صحارى موحشة .

أفي جَنب بَكْـــرٍ قطّعتني مَـــلامـــةً
لعَمـــري لقـــد كـــانت مـــلامتُهـــا ثُنى
ألا لا تلُـــومي ـ وَيب غَيـــرِكِ ـ عـــاريـــاً
رأى ثـوبَـه يـــومـاً من الـدهـرِ فـاكْتَسَى
فـــأقْسم لـــولا أن أسُرَّ نـــدامـــةً
وأعلِنَ أخـــرى إن تَـــراختْ بـــكَ النَّـــوى

وقيـــلُ رجـــالٍ لا يُبـــالـــون شـــاننـــا
غَـــوى أمـــر كَعب مـــا أراد ومـــا أرتـــاى
لقـــد سَكنتْ بيني وبَيْنَـــك جِقبـــةٌ
بـــاطلانهـــا العـــينُ المُلمّعـــةُ الثَّـــوى [٢٤]

وما يدرينا لعل كثرة ما ضمه ديوان كعب من نصوص تو ي الى برمه بالعلاقة الاسرية [٢٥] هي التي دفعت السكري شارح ديوانه الى ان يقول في تقديم احدى قصائده : (وكان لا يزال يكون بينه وبين امرأته شر في فقره وسوء خلقه)[٢٦] وان يقول في شرح اخرى : (وكان كعب بن زهير رجلاً شريراً شرساً محارفاً مملاقاً لا ينمى له مال ، وعتبت عليه امرأته ...)[٢٧] .

لقد نفض كعب يده من الانتماء الأسري ، ومن هنا كان للمرأة التي ظل يحرص على ان يجعلها في مقدماته التقليدية مثالاً للجمال الانثوي الباهر ان تغدو رمزاً للغدر والخيانة والكذب والتلون ، فها هي (ام شداد) التي رسم لها صورة جمالية رائعة فيشبهها بظبية تطيف بوليدها ، ويشبه عينها بعيني بقرة وحشية ترعى بين الرياض والخمائل ويشبه ثناياها باقاح ترتوي من عروق

www.dorat-ghawas.com

تقلقلت في تربة الروض يعود ليهدم هذا المثال الجمالي الصارخ فيقول :

فاصبحتُ قد أنكرتُ منها شمائلاً
فما شئتَ من بُخل ومن مَنْع نائلِ
وما ذاكَ عن شيءٍ أكون أجترمتهُ
سِوى أن شيباً في المَفارق شاملي
فإن تَصرميني وَيْبَ غيركِ تُصرمي
وأوذنت إيذانَ الخَليط المُزايل[٢٨]

ويبدو ان الصيفة لازمت كعباً طوال حياته ، فما صورة (سعاد) في البردة التي قالها عند اسلامه ببعيدة عن صورة (ام شداد) فهي (اغن غضيض الطرف مكحول) وهي تبتسم عن عوارض يجري عليها ريق كانه الراح المزوجة بماء بارد صاف ، ولكن هذا المثال الجمالي الاخاذ يتحطم تماماً عندما تكتشف حقيقة الشر الكامنة وراء الجمال .

يا وَيْحَها خُلَّةً أنّها صدقتْ
ما وَعدَت أولو أنَّ النُّصح مقبولُ
لكنّها خُلَّةٌ قد سِيط من دمِها
فَجعٌ وَولَعٌ وإخلافٌ وتبديلُ
فما تَدومُ على حالٍ تكونُ بها
كما تَلَوَّنُ في أثوابها الغُولُ
وما تمسُّكُ بالوَصلِ الذي زعمت
إلا كما تُمسكُ الماءَ الغرابيلُ
ارجو وآمل ان يعجلن في ابدٍ
وما لهنَّ طوالَ الدَّهر تعجيلُ[٢٩]

الا تكشف صيغة جمع المؤنث التي وردت في البيت الاخير عن هذه العقدة الخفية التي شكلتها حياته الاسرية القلقة فانعكست على علاقته بالمرأة بوجه عام ؟ ان قناعتنا بان المرأة في مقدمات القصيدة الجاهلية تستمير ملامحها من ملامح المناخ النفسي العام لموضوع القصيدة نفسها فان اطراد رسم المثال الجمالي ثم تهديمه في مقدمات كعب لا يخلو من مدلول يقرر اتجاهاً شخصياً فرض اثاره على نتاج الشاعر بشكل عام سواء في اختياره لموضوعات قصائده ام في انعكاس ملامح الموضوعات على ملامح المقدمات .

لقد كان انتماء كعب الى اسرة ابيه واهناً قلقاً ، وكان انتماؤه الى اسرته وزوجه اكثر وهناً واشد قلقاً ، وكان لابد له من انتماء تطمئن له نفسه الحائرة ، اما العودة الى مزينة فلم تكن متاحة له وهو لا يجد لقمة العيش الا من مال ابيه المقيم في بني مرة ، واما البقاء في بني مرة والتمسك بالتقاليد السلمية التي مارسوها فلم يكن يمنحه فرصة التعبير عن عنف شخصيته وحدة مزاجه ، ومن هنا كان له ان يبحث في احلامه الشعرية في الاقل عن انتماء من نمط سبقه الشنفرى الى التمسك به على صعيد الواقع حين غادر قومه ليعيش مطمئناً بين وحوش الصحراء متخذاً منهم اهلاً بعد هجر الاهل . وعلى الرغم من ان كعباً لم يتصعلك بل ظل مقيماً في بني مرة طوال حياته ابيه فانه مارس في شعره تصوير حياة التفرد في صحراء لا يكدر صفاء الانتماء اليها نصح اب ولا لوم زوجة ولا حرمان من انتماء دموي .

وعلى رمال تلك الصحراء ظل كعب يجد انتماءه الحقيقي خارج اطار المجتمع الذي لم يبق له من يطمئن اليه فيه الا خليل يمارس معه لذته ويشاركه نزواته ثم لا يمل من امتداد الشوط مهما امتد .

وقد أشهدُ الكاسَ الرَّويَّة لاهياً
أعلُّ قُبيلَ الصُبح منها وأنهَلُ
يُنازعُنيها لَيِّنٌ غيرُ فاحشٍ
مُبادرُ غاياتِ التِّجارِ معذَّلُ
إذا غلَبتهُ الكاسُ لا متعبِّسٌ
خَصورٌ ولا من دُونها يتبسَّلُ
وليس خليلي بالملسول ولا الَّذي
يلُوم على البُخلِ البَخيلَ ويَبخلُ[٣٠]

ومع هذا الخليل كعب عالمه الذي اختاره في مجاهل الارض ، فهو يمارس معه حياة الصعاليك التي تبرز فيها الذات وتحقق وجودها الذي تطمح الى تحقيقه خارج اطار الانتماء .

ونَار قُبيل الصُبح بادرتُ قَدْحَها
حَيَّا النَّار قَدْ أوقدتُها لمُسافر
فَلوَّح فيها زَادَهُ وربائُهُ
على مَرْقبٍ يَعْلُو الأخرَّة قاهرِ
ولَما أجنَّ الليلُ نَقباً ولَمْ أخفْ
على أثرِ مِنِّي ولا عَيْنَ ناظِرِ
أخَذْتُ سلاحي وانحدرتُ الى أمرىء
قليلٍ أذاهُ صدرهُ غيرُ واغرِ[٣١]

الصديق الصعلوك هو اخر الخيوط التي ظلت تربط بين كعب والمجتمع الانساني الذي لم يعد يعني كثيراً بتوثيق اواصر الانتماء اليه ، وما يعنيه من هذا الانتماء الذي لا تنميه اليه وشيجة لم تتيح له من ان يمارس ما يصبو اليه من تعبير عن شخصية عنيفة ومزاج حاد ؟

لقد اتجه كعب الى عالم الصحراء يمارس انتماءه في وحشته ويعبر عن تطلع الى خوض صراع لم يكن مهيأ له ان يخوضه في اطاره الاجتماعي ، وذلك هو سر الغزارة الواضحة في عدد لوحات الرحلة من مقدمات قصائده والغزارة الواضحة لصور الصحراء في تلك اللوحات فضلاً عن غزارة قصائده ذات المقدمات التقليدية ، وتلك حقائق استخلصناها من دراسة إحصائية أجريناها على ديوان كعب ودواوين اربعة من معاصريه وتضمنها المسرد الاتي[٣٢]

ونحن نريد ان نركن الى المدلول الكمي وحده في تقرير حقيقة عمق انتماء كعب الى عالم الصحراء وتعبيره عن وجوده الانساني

www.dorat-ghawas.com

اسم الشاعر	عدد قصائد الديوان ومقطوعاته	المقطوعات والقصائد ذات الموضوع الواحد	نسبتها الى نصوص الديوان	القصائد ذات المقدمات التقليدية	نسبتها الى نصوص الديوان	عدد لوحات الرحلة	نسبتها الى عدد القصائد ذات الموضوعات التقليدية	عدد لوحات الرحلة التي تقتصر على وصف الناقة او الفرس	نسبتها الى عدد لوحات الرحلة	عدد لوحات الرحلة التي تتضمن وصف الصحراء مع وصف الناقة او الفرس	نسبتها الى عدد لوحات الرحلة
زهير بن ابي سلمى	٥٥	٢٥	٤٥،٤٥ ٪	٣٠	٥٤،٥٥ ٪	١٩	٦٣،٣٣ ٪	١٠	٥٢،٦٤ ٪	٩	٤٧،١٦ ٪
النابغة الذبياني	٥٧	٥٥	٧٣،٣٣ ٪	٢٠	٢٦،٦٧ ٪	١١	٥٥ ٪	٨	٧٢،٧٣ ٪	٣	٢٧،٢٧ ٪
لبيد ابن ربيعة العامري	٦٤	٤٥	٧٠،٣٢ ٪	١٩	٢٩،٦٨ ٪	٩	٤٧،٣٧ ٪	٧	٧٧،٧٨ ٪	٢	٢٢،٢٢ ٪
الحطيئة	١٠٦	٧٤	٦٩،٨١ ٪	٢٢	٣٠،١٩ ٪	١٣	٤٠،٦٣ ٪	٩	٦٩،٢٤ ٪	٤	٣٠،٧٦ ٪
كعب ابن زهير	٣١	١٢	٣٨،٧١ ٪	١٩	٦١،٢٩ ٪	١٦	٨٤،٢١ ٪	٧	٤٣،٧٥ ٪	٩	٥٦،٢٥ ٪

من خلال خوض مخاطرها ، بل نقيم قناعتنا على استقراء طبيعة التفاصيل التي ضخمها في لوحات رحلته وهو يتحدث عن صحرائه التي ارتاد مجاهلها وواجه مخاطرها وعرض ذلك كله باسلوب ينم عن رغبة جامحة في تكرار تجربة الارتياد والمواجهة من خلال تعميق التفاصيل حتى كأن الصحراء غدت وطنه الذي لا يحس بالانتماء الا اليه ، وذلك هو السر في تحول لوحات كعب من نمط الوصف التقريري الذي نتأمله في دواوين شعراء القبائل الى نمط وصف الصماليك الذي يشيع فيه تدفق التفاصيل وعفوية المعالجة المنبئة عن ان الشاعر يتحدث عن عالم مألوف يعيش فيه وليس العالم الذي يمر به مروراً كلما دعت الحاجة الى ذلك .

الم يكن رمل الصحراء وحده هو الوطن الذي تهفو اليه نفس كعب ؟ فعلى ذلك الرمل خلق الشاعر لنفسه مجتمعاً من مخلوقات غريبة ظل يعبر عن مدى قربها من نفسه وعمق رغبته في الانتماء اليها بعد ان انتزع نفسه من معاناة الاخفاق في التعبير عن ذاته في اطار الانتماء الى مجتمعه الانساني .

ففي صحراء كعب تعمر الجن تلك المجاهل التي لا يعمرها انسان ولكن عزيف الجن لا يبعث في قلب كعب الا الرغبة في الإصغاء لعله يعدن ما يسمع .

وضَرمـــاء مِـــذكـــارٍ كـــأنَّ دويَّهـــا
بُعيـــدَ جَنَـــانِ الليـــلِ ممـــا يُخيِّـــلُ
حـــديثُ أنـــاسيٍّ فلمـــا سَمعتُـــهُ
إذا ليس فيـــه مـــا أُبـــينُ فـــأعقـــلُ[٣٣]

وتبقى صورة الجن ماثلة في لوحات صحراء كعب[٣٤] لتنبيء عن رغبته العارمة في ارتياد مالا يرتاده البشر من ارجائها القصية ، على انه يستحضر صورة اخرى عن الرغبة نفسها ، ففي الصحراء التي يمر بها جثث نوق هلكى جرب اصحابها ان يرتادوا بها الصحراء فكان الموت مصير الجميع :

ولا حب كحصـــير الـــرامـــلات تـــرى
من المَطيِّ عـــلى حـــافـــاتـــه جيفـــا
والمُـــذيبـــاتِ عليهـــا الطَّـــيُّ تنقـــزُهـــا
إمـــا لهيـــداً وإمـــا زاحفـــاً نَطِفـــا[٣٥]

وتتكرر الصورة نفسها في لوحات رحلة كعب[٣٦] ...

واذ يدرك كعب ان صورة الابل الهلكى في الصحراء قد تغري بالظن

www.dorat-ghawas.com

بان ثمة من ارتادها قبله فاخفق فانه يذهب الى ابعد من هذا فيستحضر صورة صحراء آمنت فيها القطا مرور العابرين فبنت اعشاشها على اديمها وتركت فراخها في تلك الاعشاش واثقة ان احداً لن يرتاد مواضع اعشاشها النائية :

ومُستهلك يهدي الضَّلولَ كأنَّه
حصيرُ صناعٍ بينَ أيدي الرَّواملِ
مَتى ما تشا تَسمعْ إذا ما هبَطْتَهُ
تَرَاطُنَ سِربٍ مَغرب الشمسِ نازلِ
رواياً فِراخٍ بالفلاةِ قوائم
تحطَّمَ عنها البيضُ حُمرِ الحواصلِ
توائمَ أشباهٍ بغيرِ علامةٍ
وُضِعنَ بمجهولٍ من الأرضِ خاملِ[٢٧]

ونادراً ما يواجه كعب عالمه الصحراوي مع خليله الصعلوك الذي رأينا أنه مارس معه نشوة حياة الصعلكة في احد نصوصه ، فهو يفضل ان يقطع اخر خيوط الانتماء الانساني حين يستقبل افق صحرائه ليشكل خيوط انتماء جديد ، ففي وحشة تلك الصحراء ينسج كعب قصة استقباله لذئب وغراب يبغيان القرى فلا يجدان هذه ما يفيض عن قوته :

قطعتُ يُماشيني متضائلٌ
من الطَّلس احياناً يخبُّ ويَفْسِلُ
لِحبُّ نُذُو الإنس منه وما به
إلى أحد يوماً من الإنس مَنْزِلُ
تقرَّب حتَّى قلتُ لم يَدْنُ هكذا
من الإنس إلا جاهلٌ اومضلَّلُ
مدى الدَّبرِ تلقشاني إذا ما زجرتُهُ
قُشعريرةٌ من وجهه وهوَ مُقبلُ
إذا ما عوى مُستقبل الرِّيح جاوبتْ
مسامعه فاهُ على الزَّاد مُعولُ
كنُوب إلى أن شبَّ من كَسْب واحدٍ
مُحالفه الإقتارُ لا يتمولُ
كأنَّ دُخانَ الرَّمثِ خالط لونهُ
يُفَلُّ به من باطنٍ ويُجلَّلُ
بصيرٌ بادغال الضراء إذا خدا
يَميل ويخفى بالجهاد ويمثَّلُ

تراهُ سميناً ما شتا وكأنَّهُ
حُميٌّ إذا ما صافَ أو هو أهزلُ
لسان لسَاهُ شرعةٌ وكأنه
اذا ما تعطى وجهة الريح مِخملُ
وخمشٌ بصدريهِ المقلتين كأنه
اذا ما مشى مستكرهٌ الريح اقزل

يكاد يرى ما لا ترى عين واحد
يُثيرُ لهُ ما غيَّب التُّربُ مغوَلُ
إذا حضراني قلتُ لو تعلمانه
ألم تعلما أني من الزاد مُرْمِلُ
غرابٌ وذئبٌ ينظران متى أرى
مُناخ مبيتٍ اومقيلاً فانزلُ
أغارا على ما خيَّلتْ وكِلاهما
سيخلفُهُ منِّي الذي كان يَامُلُ[٢٨]

وتشير المتابعة المتأنية لصورة الذئب والغراب الى هذه اللذة الخفية التي كان كعب يعيش كل لحظة من لحظاتها وهو ينغمر في انتمائه الذي اختاره فيتابع ملامح شخصياته ويصور ادق الانفعالات التي تنتابه وهو يأمل تلك الشخصيات ويرسم صورها التي حفرت عميقاً في ذاكرته ، اما ضمير المتكلم المفرد فهو اشارة حاسمة اخرى الى ان كعباً لم يكن يتحدث عن (رحلة) عادة ما كان اهل البادية يقطعونها في ركب جماعي ، انه يتحدث عن ارض يحس ان جذوره وحدها ينبغي ان تنغرس فيها ، ومجتمع يريد ان يمد جسور انتمائه المتفرد إليه .

واذ يمثل الجن والقطا وجثث الرذايا والذئب والغراب مخلوقات مجتمع كعب الصحراوي فان ثمة مخلوقاً اخر ظل يرفقه في رحلته ليمثل القاسم المشترك بين المجتمع الانساني الذي غادره والمجتمع الصحراوي الذي يطمح الى ان ينوب فيه ، انه (الناقة) التي بدت في كل لوحاته اداة مواجهة تمتلك مواصفات القدرة والصلابة والضخامة سواء من خلال سماتها الخارجية المنظورة أم من خلال قدراتها الكامنة في عزمها المتجدد على مواصلة الشوط المجهول .

ان تركيز كعب على وصف الناقة وامتداد ذلك الوصف على مساحة متميزة في بعض قصائده[٢٩] لا ينبغي ان يشغلنا عن حقيقة مدهشة وهي ان هذه الناقة تغادر واقعها الحيواني احياناً لتتقمص الصورة التي ظلت تشكل عقدة حرمان كعب من الحياة الاسرية المستقرة ، فهي غالباً ما تحتل الموضع الذي كان ينبغي ان تحتله شريكة الحياة في رحلة العمر .

ناقة كعب تتحول رمزاً للأمان والسكن والاطمئنان ، بل انه ليغلو في تعميق علاقته الانسانية بها وهما يواجهان ليلاً موحشاً في مهمة قفر فينيخها ويتوسد الرمل تاركاً لها ان تحرسه ولكنه ما يكاد يغفو حتى يهب حين يحس انها هي بحاجة الى النوم فيؤامر نفسه ايتولى حراستها كما تولت أم ينام ويدع مصيرهما كليهما للاقدار .

أذخت قلوصي وأكتلأتْ بعينها
وآمرتُ نفسي أيَّ امريَّ أفعلُ
أأكلؤها خوفَ الحوادث إنها
تريبُ على الانسان أم أتوكَّلُ[٣٠]

www.dorat-ghawas.com

أليست الزوجة التي تعين على متاعب الحياة أليق بهذه الصورة من الناقة ؟

من هنا كان هاجس كعب في لوحات رحلته ان يقرن بين صورتي الناقة والمرأة بوسائل فنية مختلفة فهو يعمد الى الربط المباشر بين صورة أوب نراعي ناقته وأوب نراعي النائحة الثكلى التي يبعثها حنانها الاسري على الافراط في ايلام نفسها وتعذيب جسدها وقد واجهت مصيبة فقد ولدها البكر .

كـــان أوب نراعيهـــا وقـــد عـــرقتْ
وقـــد تلفّـــع بـــالقـــورِ الفســـاقيـــلُ
بقـــال للقـــوم حـــاديهم وقـــد جَعَلتْ
وُرق الجنـــادب يـــركضْن الحصى قيلـــوا
شـــدُّ النهـــار نراعـــا عيطـــلٍ نصف
قـــامتْ فجـــاوبهـــا نكْـــدٌ مثـــاكيـــلُ
نـــؤاحـــةٌ رخـــوةُ الضبعـــين ليس لهـــا
لـــا نعى بكـــرهـــا النـــاعـــون معقـــولُ
نفـــري اللبـــان بكفّيهـــا ومـــدرعُهـــا
مشقَّقٌ عن تـــراقيهـــا رعـــابيـــلُ[41]

على ان صورة المرأة تتسلل الى مقاطع وصف الناقة من منافذ اكثر خفاء واقدر على بعث دهشة المتلقي فعين ناقة كعب التي تديرها للدرب الممتد حتى الافق اشبه بمرآة الصناع الحاذقة التي تعرف كيف تتزين لزوجها فتظهر له ابهى محاسنها وتواري ما سواها .

وتـــديـــرُ للخـــرق البعيـــد نيـــاطُـــهُ
بَعْـــدَ الكـــلال وبَعْـــدَ نَـــوْم السُّـــاري
عينـــا كمـــرآة الصُنـــاع تُـــديـــرهـــا
بـــانـــامـــل الكفـــين كـــلُّ مُـــدار
بجمـــال محجـــرهـــا وتعلمُ مـــا الـــذي
تُبـــدي لنظـــرة زوجهـــا وتُـــواري[42]

أليس من حقنا ان نظن ان المرأة الوفية الرقيقة الحريصة على رضى زوجها ووده كانت عقدة نقص كعب التي عانى منها وهو يواجه واقع الشر الذي كان يدور بينه وبين زوجه لفقره وسوء خلقه ؟

وما دام كعب غير قادر على تغيير واقعه الاسري المزق فان من حقه ان يعمد الى ممارسة نمط من احلام اليقظة التي يعوض فيها عن حرمانه باعادة تشكيل ملامح ناقته في عالمه الصحراوي الذي ما كان ينبغي ان تحتله المراة المثال في عالمه الانساني الذي غادره الى غير رجعة .

لقد بلورت حياة كعب في بني مرة الغطفانيين هذا التوجه العنيف الى التحول بالانتماء من الاطار الاجتماعي الى الاطار الصحراوي الذي كاد نمط كعب الشعري فيه يبدو اقرب الى نمط الصعاليك ، أما الحس القبلي وما يتمخض عنه عادة من آثار واضحة في شعر شعراء القبائل ويتوزع بين مديح وهجاء وفخر ورثاء فإننا نكاد لا نلمح له اثراً في نتاج كعب في المرحلة التي قضاها في بني مرة ، فديوانه كله لا يضم الا نصاً واحداً من ثلاثة ابيات توجه الى (آل بهثة) يدعوهم الى العودة الى ذبيان بعد ان غادروا ارضهم مغاضبين واستقروا في موضع يقال له (تثليث) ، وهي ابيات لا تنم عن تفاعل صادق ولهذا بدت ادنى الى النثرية في اطارها الادائي :

هلمَّ الينـــا آل بُهثـــة إنَّمـــا
هي الـــدّارُ لا نعتـــاضهـــا ونهينهـــا
هلمَّ الى نبيـــان ان بـــلادهـــا
حُصُـــون وانَّ السمهـــريَّ قـــرونُهـــا
ولا الفينكم تعكُفُـــــون بقُنَّـــــة
بتثليث انتم جُنُـــدهـــا وقطينُهـــا[43]

لقد ظل كعب يتطلع الى انتمائه الدموي المفقود وهو مضطر الى العيش في كنف ابيه الذي ظل مقيما في اخواله المزينين ، ولكن وفاة ابيه فتحت امامه فرصة اللحاق بانتمائه المزني الذي لم يعد له منفذ للحياة الكريمة سواه . وكانت مزينة تخوض مشكلات عنيفةمع الخزرج ، فقد روي ان رجلًا مزنياً يقال له (جوي) نزل على حلفاء مزينة من الاوس ، وكانوا في قتال مع الخزرج ، فخرج معهم للقتال فاصيب فرآه ثابت بن منذر والد حسان الشاعر فشمت به وعرض بمزينة فاقسم جوي وهو يجود بانفاسه ان مزينة ستقتل به من الخزرج خمسين ليس فيهم اعور ولا اعرج[44] وبلغ الخبر مزينة ولكن يبدو انها لم تكن مهيأة لطلب الثار ، وهنا وجد كعب فرصته للتعبير عن عنف الشخصية وحدة مزاجه ، فراح يحرض مزينة على الثار لعلها تخوض اتون حرب ظلت نفسه تتوق الى خوضها عندما كان مقيماً في اخواله المزينين ، وكان ان توجه الى قومه بقصيدة تحريض اقام مضمونها على نمط من الايلام النفسي القائم على التهكم ، فهو يعلن عن خشيته من ان يطول الزمن حتى يموت القتلة ثم يموت اولادهم فلا تجد مزينة من تثار منه مكتفيه بالوعيد الفارغ الذي لا طائل وراءه .

فـــابلـــغ ان عـــرضت بنـــا رســـولًا
أبـــا المملـــوح إنَّ لـــه جـــلالا
أمـــود خلفكم هـــزمـــاً ولمـــا
تـــذوقـــوا من عـــداوتنـــا نكـــالا
ولَـــمـــا تفعلـــوا إلّا وعيـــداً
وينقـــلُ من أمـــاكنهـــا الجبـــالا[45]

وتبلغ قصيدة كعب مبلغها من نفوس المزنيين فيغيرون على الخزرج في يوم بعاث ويقتلون منهم عدة ويأسرون ثابت بن المنذر ويأبون ان يفادوه الا بتيس اسود اجم امعاناً في اذلاله .

وكان ذلك كله موقفاً يشفي نفس كعب وينفس عن هذا

www.dorat-ghawas.com

الاندفاع المكبوت في اعماق نفسه سنين طوالاً ، فتلك هي الحياة التي كان يبحث عنها وهو مكتوم الانفاس في اخواله المربين اليس من حقه وهو يشارك في اول معركة ويحرز اول نصر ان يتدفق بنشيد انتقام يودعه كل انفعالات مزاجه الحاد وشخصيته المندفعة التي وجدت متنفسها في اجواء خوض سيل الدم وادراك الثار .

لقـــد ولّى آليتـــه جـــوّي
معـــاشر غـــير مطلـــولٍ أخـــوهـــا
فـــان تهلـــك جُـــوَيٌّ فكـــل نفسٍ
سيجلبُهـــا كـــذلـــك جـــالبـــوهـــا
وان تهلـــك جُـــوَيٌّ فـــإن حـــربـــاً
كظنـــك كـــان بعـــدك مـــوقـــدوهـــا
ومـــا ســـاءت ظنـــونُـــك يـــوم تُـــولي
بـــأرمـــاحٍ وفى لـــك مشرعـــوهـــا
كـــانـــكَ كنت تعلمُ يـــوم بُـــزُتْ
ثيـــابُـــك مـــا سيلقى ســـالبـــوهـــا
لنـــذرك والنـــذورُ لهـــا وفـــاءٌ
إذا بلـــغ الخـــزايـــة بـــالغـــوهـــا
صبحنـــا الخـــزرجيـــة مُـــرهفـــات
أبـــاد نوي ارومتهـــا نووهـــا
فمـــا عُتِـــرَ الظبـــاء بحيّ كعب
ولا الخمســـون قصّرَ طـــالبـــوهـــا[٤٦]

ولم تكن هي الفرصة الوحيدة التي اتاحت لكعب منفذ التعبير عن هاجس العنف الذي لم يكن متاحاً له الا من خلال انتمائه الدموي الذي عاد اليه ، فقد قتلت بنو سليم ربيعة بن مكدم وكان لكعب خؤولة في كنانة قوم ربيعة ، وبلغه ان بني سليم يعرضون دية ربيعة على كنانة فخشي ان يقبلوها وعمد الى تحريضهم على رفض الدية ودعاهم الى خوض مثل ما خاضته مزينة يوم بعاث لادراك ثار قتيلها جوّي ، فكان ان تدفق بقصيدة يقول في بعض ابياتها .

أبلـــغ كنـــانـــة غثهـــا وسمينُهـــا
البـــاذلـــينَ ربـــاغهـــا بـــالقـــاطنِ
إن المـــذلـــة ان تُطـــلَّ دمـــاؤكم
ودمـــاء عـــوف ضـــامنٌ في العـــاهنِ
أمـــوالكم عـــوضٌ لهم بـــدمـــائهم
ودمـــاؤكم كلفٌ لهم بظعـــائنِ
طلبـــوا فـــأدرك وتـــرَهم مـــولاهمُ
وأبت سعـــاتكم ابـــاء الحـــارن
شُـــدوا المـــآزر فـــاثـــاروا بـــاخيكمُ
إن المكـــارم نعم ربـــحُ الثـــامن[٤٧]

وتبقى (موئبات) كعب مفعمة بدلالاتها على عمق رغبته في اثارة الخصومات واذكاء نار الحرب عن طريق الموازنة بين موقفي الذل والكرامة وسحب المتلقي الى اختيار موقف المواجهة من خلال التذكير بالهوان الذي سيكون عند اختيار أي طريق آخر .

وذلك هو سر بحث كعب عن انتمائه القبلي الذي ظل يطمح الى ان يعبر فيه عن ذاته بعد ان عانى من كبت الواقع المسالم الذي اضطر الى الرضوخ له ، وهو في اخواله المربين ، ولم يستطع التمرد عليه الا من خلال احلام يقظته التي مارسها في لوحات رحلته التي رأينا تفاصيلها المتجهة الى فتح منافذ المغامرة والتنفيس عن طاقة الشر المكبوت .

ويبزغ نور الاسلام وكعب يعيش بين ظهراني قومه المزنيين الذين لم يدخلوا في الإسلام ، وكانت تلك فرصة جديدة للتعبير عن عنف الشخصية وحدة المزاج بعد ان توفرت أرضية الانتماء الكفيلة بمنحه ثقة الاطمئنان الى القوة الضامنة لحمايته حين تدلهم الخطوب .

وتتباين الآراء في مسألة موقف كعب من الإسلام ، فالمعروف ان الرسول (ﷺ) كان يبلغه هجاء شعراء المشركين فلا يزيد على ان يوجه الشعراء المسلمين للرد عليهم ، ولم يهدر دم احد منهم إلا كعب بن الاشرف الذي أمعن فشبب بنساء المسلمين وأفحش ، ومن هنا لنا ان ناخذ بما رواه ابن الاثير الذي ذهب الى الرسول (ﷺ) انما أهدر دم كعب بن زهير لتشبيبه بأم هانيء بنت ابي طالب التي كان الرسول (ﷺ) يرغب في الزواج بها ثم لم تقسم له[٤٨] .

وكان ان دخلت مزينة في الاسلام فخذلت كعباً الذي بقي مطارداً حتى جاء هو واخوه بجير فنزلا موضعاً يقال له (ابرق العزاف) يستطلعان اخبار الرسول (ﷺ) ، فقال بجير لكعب اثبت حتى آتي الرجل فانظر ما يقول . فلما لقي بجير الرسول (ﷺ) شرح صدره للإسلام فاسلم وأرسل الى كعب ان اقبل فإن الرجل لا يقتل أحداً جاءه تائباً ، ولكن كعباً ارسل الى اخيه شعراً يعاتبه فيه على خذلانه له فاجابه بجير بشعر مثله[٤٩] .

وتضيق الارض بكعب فلا يجد الا ان يقبل على الرسول (ﷺ) ليعلن إسلامه وينشده بردته[٥٠] .

ويذهب الدكتور طه حسين مذهباً متفرداً في اضاءة بعض جوانب قصة اسلام كعب حين يقرر ان كعباً وبجيراً عندما وردا ابرق العزاف كانا قد ائتمرا على اغتيال الرسول (ﷺ) وان الذي تطوع للمهمة هو بجير على حين كانت مهمة كعب هي انتظاره لتسهيل امر الهرب ، بيد ان بجيراً اسلم فاسقط في يد كعب وذلك هو سر طبيعة عتاب كعب لبجير في ابياته التي وجهها اليه حيث يقول :

ألا أبلغـــا عني بجيـــراً رســـالـــة
فهـــل لك فيما قلت بالخيف هل لكا[٥١]

ونحن نعترف بأن طه حسين ـ لو صدق ـ ادنى الى التعبير عن شخصية كعب العنيفة ولكننا نفتقد التوثيق التاريخي له .

ويبدو ان دخول كعب في الإسلام لم يلغ من شخصيته هذا الميل العنيف في الاندفاع والحدة ففي بردته ـ وهي اولى قصائده

www.dorat-ghawas.com

التي أنشدها بعد اسلامه ـ تبدو (سعاد) التي افتتح قصيدته بالنسيب بها كانبة خداعة (سيط من دمها فجع وولع واخلاف وتبديل) ، وهي صيغة رأيناها شائعة في نصوصه الجاهلية التي انبثق اكثرها في مواقف الشر والخصومة التي عكست آثارها على صور المرأة في مقدمات قصائده ، بيد ان ذلك لا يتلب من وجاهة ما ذهب اليه الدكتور عناد غزوان من تحليله للبردة حين ذهب الى ان صورة (سعاد)هي معادل صورة (العصبة) التي كان كعب يعتمد على مساندتها في محاربته للإسلام ولكنها خذلته فتركته وحيداً امام تهديد الموت[٥٢] وثم حقيقة اخرى ينبغي لنا ان نتاملها وهي ان اولى قصيدتين قالهما كعب بعد اسلامه وهما (البردة) و (الرائية في مدح الانصار) ضمنا لوحتي رحلة على ناقة ، وفي كل لوحة منهما عودة الى الصحراء الموحشة التي كانت منفذه للتعبير عن احساسه بالانسلاخ من الانتماء الاجتماعي وانغماره في الانتماء الى عالم التفرد في اجواء الوحشة والانقطاع ، وذلك ما يغرينا بالظن بان كعباً عاد الى احساسه بالغربة وهو يعيش في مجتمعه الاسلامي الجديد الذي يبدو انه دخله اولًا فزعاً من إهدار الدم ، بيد ان هذا الاحساس لم يدم طويلًا ، فقد انغمر كعب في انتمائه الاسلامي الجديد وحسن اسلامه حتى انه ليتوجه الى قومه المزنيين الذين يبدو نقضوا اسلامهم فارتدوا يدعوهم في قصيدة له الى ان يجمعوا امرهم ويوفوا بما عاقدوا الرسول (ﷺ) :

رحلتُ الى قومي لادعو جُلّهم
الى أمرِ حزمٍ أحكمتهُ الجوامعُ

ليوفوا بما كانوا عليه تعاقدوا
بخيف منى والله راء وسامعُ

وتُوصل أرحامٌ ويفرج مُغرمٌ
وترجع بالوُدّ القديم الرواجع

فابلغ بها افناء عُثمانَ كلّها
وأوساً فبلّغها الذي أنا صانع

سادعوهمُ جهدي الى البِرّ والتقى
وأمرِ العُلا ما شايعتني الاصابع

فكونوا جميعاً ما استطعتم فإنه
سيسلبكم ثوبٌ من الله واسعُ[٥٣]

ومضمون القصيدة وتفاصيلها يقدمان اشارة حاسمة الى تمكن العقيدة من نفس كعب وتوجهه بانتمائه كله الى هذا المجتمع الاسلامي الذي لم يعد الانتماء القبلي يضاهيه باية حال .

وعلى الرغم من اننا لا نسمع لكعب شعراً إسلامياً بعد هذه العينية فانها وحدها كفيلة بان تمدنا الاطمئنان الى تصورنا لطبيعة استقرار الرجل على انتمائه الجديد .

لقد عانى كعب من واقع انتمائه المزدوج في الجاهلية ، وعانى من الواقع نفسه أبان بزوغ نور الإسلام وظلت نفسه المضطربة تبحث عن التعبير عن اندفاعها وحدتها من خلال انتماء يضمن لها ذلك التعبير في مجتمع لا وزن فيه الا للفعل الجماعي ، من هنا تحولت حيَاته الى سلسلة من الاضطراب بحثاً عن هذا الانتماء حتى وجدت استقرارها الأمثل في ظل العقيدة الاسلامية ، ولكن الاجل لم يدع له فرصة التعبير الواضح عن اطمئنانه الى هذا الانتماء الا في قصيدته العينية ، وما يدرينا لعل العمر لو امتد بكعب لسمعنا ما يؤكد هذه الحقيقة التي استنبطناها من نص فريد ، ثم ما يدرينا لعل فيما ضاع من شعره مالو كشفت عنه الايام لاتاح لنا فرصة إقامة الاستنباط على أسس توثقية جديدة .

■ الهوامش والمصادر

(١) ينظر الاغاني ، لابي فرج الاصفهاني ، طبعة دار الكتب ، ١٠ / ٢٩١ ـ ٢٩٣ .
(٢) ينظر شرح ديوان زهير ، طبعة دار الكتب ١٩٤٤ م ، ٣٢٥ والاغاني ١٠ / ٣١٢ .
(٣) ينظر شرح ديوان زهير ٣١٣ والاغاني ١٧ / ٨٢ .
(٤) طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مصر ١٩٧٤ م ، ١ / ٥١ .
(٥) م . ن ١ / ١٠٩ ، ١٠٦ .
(٦) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مصر ١٩٦٧ م ، ١ / ١٤١ ، ١٣٧ .
(٧) ينظر السيرة النبوية ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مصر ١٩٧٧ م ، ١ / ١١٤ .
(٨) ينظر المعمرون والوصايا ، تحقيق عبد المنعم عامر ، مصر ١٩٦١ م ، ٨٣ .
(٩) ديوانه طبعة دار الكتب ، ١٩٥٠ م ، ٦٧ .
(١٠) م . ن ، ١١٢ ، ٦٩ .
(١١) الاغاني ، ٢ / ٦٢٨ .
(١٢) الشعر والشعراء ١ / ١٣٩ .
(١٣) ينظر المحبر ، لابن حبيب ، تحقيق ايلزة ليختن ، بيروت (د . ت) ، ٢٢٨ .
(١٤) جمهرة اشعار العرب ، لابي زيد القرشي تحقيق علي محمد البجاوي ، مصر ١٩٦٧ م ، ١ / ٧١ .
(١٥) ينظر ديوانه ، ١٦٤ ، ٣٠٠ ، ٣٢١ .
(١٦) ديوانه ٥٦ .
(١٧) ينظر ديوانه ٢١٣ .
(١٨) ينظر الاغاني ١٧ / ٨٤ ـ ٨٥ .
(١٩) تنظر تفاصيل الرواية كاملة مع الشعر في ديوان زهير ٢٥٦ وما بعدها .

www.dorat-ghawas.com

(٢٠) ديوانه ٢٠٩ .

(٢١) تنظر تفاصيل الحادثة والنص في ديوان كعب ١٢٦ وما بعدها . توائم : توافق ، لحى : لام ، قاذعت : دافعت وشاتمت ، وقد اخذنا برواية الاحوال لهذه الكلمة فهي أليق من (قادعت) بالدال المهملة التي وردت في رواية السكري .

(٢٢) ينظر الفاخر للمفضل بن سلمة تحقيق تشالز انبروز ، لايدن ١٩١٠ م ، ١٤٥ .

(٢٣) ديوانه ١٥٣ ، لم تعرج : لم تعطف . لم تؤامر : لم تشاور . امين : قيم عليها ، رجيعاً : مكرراً .

(٢٤) ديوانه ١٢٨ ، ثنى : مرة بعد مرة . ويب : ويح ، العين : بقر الوحش واحدتها عيناء ، الملمعة الشوى : التي في قوائمها بقع تخالف سائر لونها .

(٢٥) تنظر نصوص اخرى من هذا النمط في ديوانه ٧٠ ، ٤١ .

(٢٦) ديوانه ٢١٣ .

(٢٧) م . ن ١٥٣ . والمحارف : الذي لا ينمى له مال .

(٢٨) م . ن ٩٢ . الخليط المزايل : الشريك المفارق .

(٢٩) م . ن ٨ . سيط : خلط ، ولع : كذب .

(٣٠) م . ن ٤٢ . غير فاحش : دمث الخلق ، غايات التجار : اقصى ثمن يطلبون . حصور : ضيق . يتبسل : يعبس .

(٣١) م . ن ١٨٥ . حيا النار : لاحياء النار : رباته ترقبت له ، مرقب : مكان شرف ، الاحزة : جمع حزيزة وهي المكان الغليظ . نقباً : طريقاً في الجبل ، واغر : حاقد .

(٣٢) اعتمدنا في استخراج حقائق المسرد على دواوين الشعراء المحققة تحقيقاً علمياً فرجعنا الى ديوان النابغة تحقيق د . شكري فيصل ، دمشق ١٩٦٨ م وديوان لبيد تحقيق د . احسان عباس ، الكويت ١٩٦٢ م ، وديوان الحطيئة تحقيق نعمان امين طه ، مصر ١٩٥٨ م ، وطبعة دار الكتب لديواني زهير وكعب .

(٣٣) ديوان كعب ٤٥ . صرماء : ارض لا نبت فيها ولا ماء ، مذكار : لا يسلكها الا الذكور ، دويها : عزيف الجن فيها ، جنان الليل : ظلمته .

(٣٤) ينظر ديوانه ٩٤ .

(٣٥) م . ن ٧٣ ، لا حب : طريق بين ، الراملات : الناسجات ، المرنيات : الهزلى المعيبة ، لهيدا : لهدها الحمل فنقب جنبها فتفسخ . النطف : الذي هجم الدبر على جوفه .

(٣٦) ينظر ديوانه ١٢٤ .

(٣٧) م . ن ٩٢ ، مستهلك : طريق ، الروامل : النواسج ، وتنظر صورة مماثلة في الديوان ٧٦ .

(٣٨) م . ن ٤٦ . متضائل : نحيف ، الطلس : الذئاب . يعسل : العسلان مشي الذئب . جاوبت مسامعه فاه : أي تدخل الريح من فمه وتخرج من مسامعه لخلاء جوفه ، الاقتار : الفقر ، الرمث : نوع من الشجر يعل يدخل في أباطه ، يجلل : يعلى على متنه ، الضراء الشجر الذي يواري الانسان ، يعيل : يميل الجهاد : الصلب ، يمثل : ينتصب ، مشرعة : وتر ، محمل محمل السيف شبه به لدقته ، حمش : غراب ، اقزل : اعرج ، معول : شبه منقاره به ، مرمل : ناقص الزاد ، شجاعي رملة : حيتا رمل .

(٣٩) ينظر مثلاً ديوانه ٩ - ١٨ ، ٢٢ - ٢٦ ، ٨٠ - ٨١ ، ٩٤ - ٩٧ ، ١١٥ - ١١٨ ، ١٣٨ - ١٣٩ ، ١٥٩ - ١٦١ ، ٢١٧ - ٢٢٢ ، ٢٢٥ - ٢٢٧ .

(٤٠) ديوانه ٥٥ . اكتلات : كلا ، حفظ .

(٤١) م . ن ١٦ . أوب : رجع ، القور : الجبال ، العساقيل السراب ، ورق : ذات لون رمادي ، شد النهار : ارتفاع النهار ، عيطل : امرأة طويلة ، نصف : بين الشابة والمسنة ، الضبعين : العضدين ، تفرى اللبان : تشق وما حوله ، تراقيها : جمع ترقوة وعنى بها الترقوتين وما حولهما ، رعابيل : متخرقة .

(٤٢) م . ن ٤٠ . الخرق : الذي انخرق في الفلاة فذهب ، لياطه : مايتعلق به من نهاية ، الكلال : الاعياء ، الصناع : المرأة الحاذقة .

(٤٣) م . ن ٢٠٧ . تمتاضها : نتركها ، السمهري : الرمح ، قرونها : ما تناطح به أعدامها ، قنة : رأس جبل ، تتليث : موضع .

(٤٤) تنظر تفاصيل الحادثة في ديوان كعب ٢٠٩ .

(٤٥) م . ن ٢٠٥ . معود : هالك ، خلفكم : أولادكم ، تخدج : تضع قبل تمام الجنين .

(٤٦) م . ن ٢١١ . اليته : حلفته ، تولي : تقسم ، عتر الظباء : أي نبحث الظباء بدلاً من النذر .

(٤٧) ينظر الخبر والقصيدة كاملة في الاغاني ١٦ / ٦١ وبعض ابيات القصيدة في ديوان كعب ٢٢٩ .

(٤٨) ينظر الكامل في التاريخ ، ابن الاثير ، بيروت ١٩٦٦ م ، ٢ / ٢٧٤

(٤٩) تنظر المقطوعتان في ديوان كعب ٣ ، ٤ .

(٥٠) تنظر تفاصيل قصة إسلام كعب في السيرة النبوية لإبن هشام تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مصر ١٩٣٧ م ٤ / ١٤٩ .

(٥١) ينظر تفصيل راي الدكتور طه حسين في كتابه في الادب الجاهلي ، مصر ١٩٢٧ م ، ٢٩١ .

(٥٢) تنظر دراسته للبردة في مجلة الطليعة الادبية ، العدد ٥ ، بغداد ١٩٧٩ م .

(٥٣) ديوانه ١١٢ . اوس وعثمان ولدا عمرو بن اد بن طابخة وامهما مزينة بنت كلب بن وبرة واليها ينسب عقبها وزعم الاصمعي ان القصيدة لاوس بن حجر ولا يعقل ذلك فاوس تميمي وليس مزنياً .